مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد 11 / العـدد: 02 (2023)، ص: 1627-1644

الفلسفة الهابرماسية بين المبادئ الأخلاقية وبين الأطر والتطبيقات الطبية

Habermassian philosophy between ethical principles and medical frameworks and applications

حامه نبيلة [1]

[1] جامعة الجزائر 2، مخبر الجماليات والأكسيولوجيا (الجزائر)

Nabila.hamma@univ-alger2.dz

تاريخ الاستلام: 2023/05/28 تاريخ القبول: 2023/08/05 تاريخ النشر: 2023/10/06

ملخص:

لقد أفرز التقدم العلمي والتكنولوجي عدة نتائج متناقضة ايجابية ،وسلبية في الآن نفسه على الحياة البشرية، حيث ازدهرت الحياة المعيشية عامة، وظهرت الثورة التكنوعلمية، وبالتالي اختصرت على الإنسان الجهد، والمسافات ،لكن في المقابل جعلته يعيش في أزمة حقيقية بسبب انحراف العقل العلمي عن مساره الصحيح واصطدامه بعدة مبادئ، وأسس أخلاقية تعمل على تقنين تجاوزات التطبيقات العلمية، خصوصا في مجال الطب البيولوجي من أجل تثبيت الأخلاق وتخليق كل ميادين الحياة الإنسانية.

ويعد هابرماس واحدا من بين الذين تبنوا الموقف الأخلاقي من منطلق فلسفته التواصلية، واتخذ موقفا جادا اتجاه هذه التجاوزات الطبية الخطيرة على الإنسان ، والتي بلغت أوجها خاصة بظهور تقنيات الهندسة الوراثية، والتدخل في تعديل الجينوم البشري، أين أصبح هناك تعد صارخ على الحرية والكرامة الإنسانيتين، ومن ثم حاول رد الاعتبار للإنسان وقدسية حياته.

كلمات مفتاحية: :التقدم العلمي، الأخلاق الطبية، الطب البيولوجي، الحرية، الكرامة، تقنيات الهنسة الوراثية، اليبيرالية.

Abstract : Scientific and technological progress has produced several positive contradictory results and, at the same time, negative on human life, where life has flourished in general And the technological revolution came out, and so it shortened the human effort, the distances, But in return, I made him live in a real crisis, because of the scientific mind's derailment.

It runs into several principles, ethical foundations that codify the excesses of scientific applications, Especially in the field of biomedicine, in order to stabilize morality and create all fields of human life.

Habermas is one of those who embraced the moral attitude based on his communicative philosophy and took a serious attitude towards these serious medical abuses on the human person, which culminated in the emergence of genetic engineering techniques, interference in the modification of the human genome, where there became a blatant tolerance for human freedom and dignity, and thus tried to restore consideration for man and the sanctity of his life.

Keywords: scientific progress, medical ethics, biological medicine, freedom, dignity, genetic engineering techniques, Liberalism.

***المؤلف المرسل: ط.د. حامه نبيلة**

1.مقدمة

لقد صاحب ظهور الحداثة تطورا علميا وتكنولوجيا كبيرا أثر بعمق على الحياة الإنسانية في كل الميادين: الزراعة، الصناعة، التجارة، السياسة، وحتى الثورة التكنولوجية والمعلوماتية،...، و ساعد ذلك الإنسان على اختصار المسافات والاقتصاد في الجهد والعيش في رفاهية هذا من جهة، ولكن من جهة ثانية حجب الضوء عن الفلسفة حيث تراجعت كثيرا وكانت آيلة للاختفاء بعدما كانت نظرية تحليلية للقضايا، وفي ذات الوقت فسح المجال للنزعة العلموية للظهور، وبالتالي

أصبحت المعرفة علمية بعدما كانت معرفة فلسفية،ولكن الفلسفة تحايت وعاودت الظهور من جديد لتطفو إلى السطح بصيغة جديدة لتلازم العلم في كل مهامه، وهذا يظهر من خلال ظهور بعض القضايا التي يطرحها العلم خصوصا في بعض المباحث التي يدرسها كمبحث البيواتيقا ، هذا الأخير الذي يتناول العلاقة بين ممارسات الطب البيولوجي، والمبادئ الأخلاقية للإنسان، وهنا يظهر الدور الجديد الذي ستلعبه الفلسفة في زمن التطور العلمي والتكنوتقني، هذا كله يندرج ضمن الفلسفة الأخلاقية والتي تعد من بين أهم الفلسفات الاجتماعية التي حاولت جاهدة تأطير الممارسات الطبية، ومحاولة إرساء دعائمها، وهذا الاهتمام بالقيم والمبادئ الأخلاقية في ظل التطور العلمي والتكنولوجي المتسارع كان لب الفلسفة النقدية التواصلية عند هابرماس ، باعتباره واحدا من الفلاسفة الذين نادوا بذلك، وهنا يجدر بنا أن نطرح السؤال التالي:

-ما دور الفلسفة التواصلية(لهابرماس) في تقنين وضبط الممارسات الطبية؟

-هل هناك مكانة للتجربة الأخلاقية في ظل التدخل في تعديل الجينوم البشري بمعنى هل يمكن الربط بين الممكن في المجال البيولوجي والمقبول في المجال الأخلاقي؟

إن التقدم العلمي والتكنولوجي المتسارع رغم ما حققه من ايجابيات في حياة الإنسان جعل العلم ينحرف عن مساره الصحيح ليصطدم بالمبادئ والقيم الأخلاقية، فأحدث بذلك شرخا كبيرا بين العلم والفلسفة ، ولهذا تزامن معه ظهور الاهتمام بالتفكير الفلسفي الأخلاقي وتزايد الطلب بشدة على أخلقة الممارسات العلمية خاصة في مجال الطب البيولوجي، وهنا يظهر إلحاح هابرماس على ضرورة وجود الفلسفة في العلم ، أين وضع قواعد وسلوكات أخلاقية تعمل على توجيه التطبيقات الطبية وضبطها وتقنينها وفق أسس وأطر أخلاقية، يعني بالمختصر إلحاحه على وجود فلسفة علموية، وبهذا كانت فلسفته النقدية

التواصلية التي اتخذت النقد محورها هدفها الإصلاح في المجتمع، فهي تنتقد العلم في كل مبادئه ونتائجه ، لأنها فلسفة ذات نشاط واسع نظرا لما تثيره من حوار وتواصل مع مختلف العلوم الأخرى، أو حتى في علم واحد و لعل أفضل دليل على ما سبق قوله: **" إذا قدر لفلسفة لا يطرح بشأنها سؤال: ما الفائدة من الفلسفة أن توجد فلن تكون فلسفة غير علموية حسب العلم؟ فهو يشدد على أن يكون المهام الحقيقي للفلسفة هو انتقاد العلوم"** (هابرماس، الفلسفة الألمانية والتصوف اليهودي، 1995، صفحة 43).

يعتبر هابرماس النقد الذي تمارسه الفلسفة النقدية التواصلية يتجه في نفس الوقت إلى كل النزعات المحافظة والنزعات العلموية معتبرة إنسانية الإنسان مهددة فعليا وعمليا، وهذا يعني أن الإنسان مهدد ككائن بيولوجي مادام قد تشيأ العقل والسلعة تصنمت، مما يجعل الانتكاسة التي أصابت العقل عنوانا لسلطة العقل وبراغماتيته لتحقيق النجاعة والمردودية على حساب المبادئ الأخلاقية الإنسانية (المحمداوي و عبد اللاوي، هابرماس العقلانية التواصلية في ظل الرهان الايتيقي في نقد العلموي والديني والسياسي). وهذا يوحي اليوم ونحن على مشارف القرن 21م أننا نجد أنفسنا أمام ضرورة حتمية تفرض علينا العودة للأخلاق وذلك بتأسيس أخلاق جديدة تفرض سلطتها على العلم وتطوراته (الجابري، 1987).

وعلاوة عن هذا فالفلسفة في نظر هابرماس مستعدة ومؤهلة أكثر من أي وقت مضى لدراسة كل الإشكالات الايتيقية التي أوجبتها الحاجة الاجتماعية الإنسانية من جهة، وأفرضها تقدم العلوم والتكنولوجيا الذي أحدث طفرة والذي عقد الحياة الإنسانية (راسل، 1983) من جهة أخرى ، لأن السيطرة حسبه هي التي توجه المصلحة التقنية ، وهذا ما جعل الوجود الإنساني تحت السيطرة العلمية، وبالتالي افترض الأمر أن يخضع لعملية تعيين تحت مجهر

التحرر الذي هو الأساس الذي ترتكز عليه الفلسفة النقدية، ولهذا كانت الفلسفة النقدية التواصلية عبارة عن دراسة تحليلية نقدية، ومنهجية، تفهم الأمور بطريقة عقلانية، وهذا ما يعبر عنه بين الواقع الكائن والممكن الحصول .

وفي إطار الحديث عن مهام الفلسفة في تأطير البحث العلمي فهابرماس قد نبه الفلاسفة إلى عدم فسح الطريق أمام علماء البيولوجيا ،وعلماء الهندسة خاصة الذين يمتازون بالخيال العلمي الواسع لهذا الموضوع والذي ظل محل نقاش وجدال حادين طويل الأمد، ومتشعب الفروع (هابرماس، مستقبل الطبيعة البشرية نحو نسالة ليبيرالية، 2006)،

أما فيما يخص موضوع العلم الذي يتناول استمرار النوع البشري وإمكانية تحسين النسل، وتعديل طاقم الإنسان الوراثي سواء بغاية علاجية، أو بهدف الحفاظ عليه من أخطار الأوبئة، والكوارث الطبيعية والأمراض، والجراثيم، تكشف المدرسة النقدية التواصلية عن مخاطر وقوع البحوث العلمية فريسة حسابات الربح والخسارة ومنطق السوق، بالإضافة إلى الوقوف في مواجهة التقدم العلمي باسم الحفاظ على الطبيعة الإنسانية التي يزعم البعض أنها ثابتة، وقائمة (المحمداوي و عبد اللاوي، يورغن هابرماس العقلانية التواصلية) ،فالعلم لم يعد يقتصر على المواضيع العينية (الفيزياء والكيمياء) بل وصل إلى درجة الطفرة التكنو معلوماتية التي حطت رحالها في كل الميادين حتى على بقاع الكائن الحي، وطبيعته التي كنا نعتبرها مقدسة وثابتة ومستقرة (المحمداوي و عبد اللاوي، يورغن هابرماس العقلانية التواصلية في ظل الرهان الايتيفي في نقد العلموي والديني والسياسي)، وهذا يعني أن مهمة العلم تخطت كل الأبعاد والحدود لتبلغ عمق التطبيق والمساس بالطبيعة الإنسانية، يعني تعدت الطبيعة الخارجية للفرد لتشمل أسس الطبيعة الداخلية ، خصوصا بعد ظهور المسائل البيولوجية الطبية والهندسة الوراثية بما فيها الولادة المبرمجة ،والاستنساخ، وتحسين النسل، أين

وجد الإنسان نفسه أمام تحدي حقيقي اتجاه هذه المسائل البيولوجية التي تهدد الوجود البشري حيث تطال حياته وهويته وكرامته، وكذلك حريته، وكل هذا طبعا يصب في حقل الأخلاق الإنسانية، يعني أنه كيف للإنسان أن يحافظ على أخلاقه في ظل تحديات وممارسات الطب البيولوجي، بحجة أن الهندسة الوراثية أصبحت بإمكانها أن تتابع وتكمل ما عجزت عن تحقيقه الطبيعة وفلسفة التاريخ ، بحيث يصبح الإنسان كأي إنتاج مصنع في الوجود، بفضل التقنيات التي تنتجه، وبحجة أيضا أنها بها يتم التعرف على مختلف الفيروسات التي تصيب الطبيعة البشرية (المحمداوي و عبد اللاوي، هابرماس العقلانية التواصلية في ظل الرهان الايتيقي في نقد العلموي والديني والسياسي)، وأن ما عجزت الطبيعة عن فعله، وما وقفت أمامه فلسفات التاريخ بآرائها و أفكارها ونظرياتها مصدومة أصبح بإمكان الهندسة الوراثية أن تجيب عما عجزت عنه هذه الأخيرة، وأن تحل اللغز وتتعمق بطريقتها الخاصة، و أصبح بمقدورها إتمام المهمة وتتبع المسار وحتى تطويره بفضل تقنيات جديدة و فعالة لهذه الهندسة، وهنا تجدر بنا الإشارة إلى أهم أنواع تقنيات الهندسة الوراثية، ففيما تكمن إذن هذه الأخيرة، وما هي درجة تأثيرها على الطبيعة الداخلية للفرد ؟

2-تقنيات الهندسة الوراثية والتعديل الجيني البشري:

هناك العديد من التقنيات والتي ندرجها كالآتي:

2.أ/**تقنية التخصيب الاصطناعي:**(Insémination Artificielle): هذه العملية التي يتم من خلالها الحمل ليست نفس الطريقة التي تعودت عليها البشرية منذ بدء الخليقة بمعنى أنها تتم بواسطة التلقيح الصناعي، بدون أن يكون هناك أي اتصال جنسي بين الذكر والأنثى،أي هو تلقيح الأنثى بوسائل طبية بسائل منوي وهذه العملية على نوعين إخصاب اصطناعي من الزوج، و إخصاب صناعي من متطوع.

2.ب/ تشخيص الجنين:وهي معرفة الخصائص الوراثية والتحكم فيها، والكشف عنها من أنها لا تحمل تشوهات قد تصيب الجنين فيما بعد، وأنه خال من أي من الأمراض الوراثية الخطيرة قد تنتقل من طرف الآباء إلى الأبناء، وهو ما لا يرخص به القانون والعملية تشبه أطفال الأنابيب.

2.ج/**عملية الزرع بالأنبوب أو أطفال الأنابيب Fécondation in vitro:** هذه العملية تكمن في زرع بويضة الأنثى مع مني الذكر في أنابيب أو زجاجات اختبار، ويتم تلقيحها ، وحينها تنقل لتزرع في رحم الأنثى بمعنى يتم التلقيح خارج الرحم (البقصمي، 1993).

2.د/_**عملية الاستنساخ:** وهو خلق إنسان نسخة طبق الأصل لمثاله الأصلي مع امتيازه بكل القدرات البدنية و قدراته في الذكاء أفضل من مثالها الأصلي.

2.هـ/_**تأجير وكراء البطون الحوامل**: وهذه العملية يتم بها استئجار النساء للحمل مقابل المال عند وضع الجنين.

كل هذه العمليات والتقنيات كانت نتيجة التطورات الحاصلة في مجال الهندسة الوراثية وعلم الأجنة والاستنساخ الطبي الذي يطرح اليوم مسألة مهمة وحساسة وهي إنتاج أعضاء وخلايا بشرية كقطع غيار، وإنتاج نماذج بإمكانها أن تكون دون علاقة جنسية، ولهذا السبب هابرماس تطرق لدراسة وتحليل مثل هذه المسائل من زاوية أخلاقية والتي كان له موقف جاد من ذلك.

3-موقف هابرماس الأخلاقي من الممارسات الطبية وتطبيق تقنيات الهندسة الوراثية والتدخل في تحويل الجينوم البشري:

لقد اتخذ هابرماس موقفا صارما اتجاه الممارسات الطبية، وحاول بشتى الطرق تقنينها بشروط وقوانين أخلاقية تتماشى والحفاظ على الطبيعة البشرية المقدسة، ولهذا نجده قد واجه وبشدة دعاة الاستنساخ، وكذا المنادين بتطبيق الإحيائيات التقنية على الخلايا الإنسانية، وهذا ما يعبر عن قلقه الشديد بشأن

كل التطورات، و التحولات، والتغيرات المتوقعة على حياة البشر مستقبلا ، والدليل على ذلك تدعيمه لموقف رئيس جمهورية ألمانيا الفيدرالية الذي يقول :" **إن من يعمل على تحويل الحياة البشرية إلى أداة، أو من يميز بين حياة تستحق أن تعاش عن حياة لا تستحق ذلك، إن من يقوم بذلك يكون قد دخل طريقا لا نقطة نهاية فيها**" (هابرماس، مستقبل الطبيعة البشرية نحو نسالة ليبيرالية، 2006، صفحة 29)، ونفهم من هذا أن انحراف العلم عن مساره الصحيح وبلوغ أقصى مساوئه ويقصد به كل التغيرات والتحولات التي تطرأ على جسد الكائن البشري فهذا ينذر بتحول خطير على الهوية الإنسانية، و بالتالي دخوله نفق لا مخرج منه ، وبلوغه نتائج لا تحمد عقباها.

هذا يجعلنا نستحضر فكرة ماركس في قوله بمسألة الاغتراب الإنساني، والتي تقابلها مواقف هابرماس من مسألة التقنية التي جعلت العالم بدل أن يعيش الحياة السعيدة والرفاهية التي كان قد رسمها، أصبح يعيش الجحيم خصوصا بعدما أصبح العالم تحكمه الأداتية، وأصبح متشيئا خاصة بعد الثورة العلمية التي قلبت الموازين ليس فقط من الناحية الخارجية بالتحكم في الإنسان وإنما تعدت ذلك التحكم حتى في صفاته الوراثية، ومحاولة استئصالها إذا كان ذلك الأمر متاحا، ومحاولة إنشاء إنسان جديد خال من العيوب والنواقص معنويا، وجسديا ، ويرى هابرماس أن التقدم المشهود في النسالة الذرية لم يزل يجعل الأمر ممهدا للتدخلات البيواتيقية على الطبيعة الإنسانية ويتوسع فيها، وهذه التقنية حسب هابرماس لا تزال تنتهك الحدود بين الطبيعتين الخارجية والداخلية على حد سواء، وفي مقابل هذا الموقف المضاد للتطور التقني استند هابرماس إلى موقف ألمانيا كدولة، والتي لم تمنع التشخيص ما قبل الزرع والأبحاث الاستهلاكية على الأجنة فحسب ،بل منعت أيضا الاستنساخ العلاجي، والأمهات المتطوعات، الموت الرحيم أو المعاين طبيا رغم ترخيصه من طرف دول

أخرى، ففي رأيه التدخلات التقنية على السلالة البشرية ومسائل استنساخ الأعضاء البشرية محظورة في كل العالم نظرا لمخاطرها ، فحسبه ما يصنعه العلم لابد أن يكون خاضعا لرقابة أخلاقية تجعلنا بالمقابل ولأسباب معيارية غير قادرين على التصرف على هوانا، مما يعني أننا مؤطرين أخلاقيا (هابرماس، مستقبل الطبيعة البشرية نحو نسالة ليبيرالية، 2006)،لأن في المقابل الدولة الدستورية الليبرالية تتطلب أن تكون استقلالية البحث محمية بقوانين لأنه بقدر ما تتوسع التقنية، وتصبح أكثر رفاهية لتجعل الطبيعة في متناول أيدينا بقدر ما ترتبط بها وعود اقتصادية ونمو للإنتاجية، وزيادة الرفاهية، وبروز المنظور السياسي الأكثر حرية في التصرف لجهة أخذ قرارات فردية ، وهذا في نظر هابرماس يعزز تنامي حرية الاختيار واستقلالية الأفراد الخاصة، لأن العلم والتقنية قد تحالفا مع الليبرالية (هابرماس، مستقبل الطبيعة البشرية نحو نسالة ليبيرالية، 2006)، وهذا قد أدى إلى الزيادة في الحرية على حساب انحلال اجتماعي أو فك السحر عن الطبيعة الخارجية. ولهذا ينادي هابرماس بوضع حد للنزعة الجامحة من خلال إعادة الاعتبار للطبيعة الداخلية (هابرماس، مستقبل الطبيعة البشرية نحو نسالة ليبيرالية، 2006) ، كما أن هذا الأخير ينادي بالحماية القانونية للإرث الجيني ويرفض كل تلاعب فيه، باعتبارها تحفظ له حقه الذي لم يخضع للتدخل المصطنع، وهي نفس النظرة تشاركها مع موقف المجلس الأوروبي.

أما فيما يخص تقنيات إعادة الإنتاج مثل الترميم العضوي، أو الموت المعاين طبيا والذي تميزه تنامي في الاستقلالية الشخصية ، فهو منتقد لها بشدة ، لأنه شك كثيرا فيها ،ومن ثم رأى أن الأنسب في ذلك هو أن تخضع هذه المهمة لسرية المهنة والتي تخضع بدورها لقوانين وأسس أخلاقية (هابرماس، مستقبل الطبيعة البشرية نحو نسالة ليبيرالية، 2006)،لأن أي تدخل استنسالي عبر التحول الوراثي سيؤدي حتما وبالضرورة إلى التحول في بنية تجربتنا الأخلاقية، ما

يعني أن هذه التقنية الوراثية ستوقعنا في البعض من الأحيان في مواجهة مسائل عملية تتعلق بفرضيات مرتبطة بالحكم والفعل الأخلاقيين (هابرماس، مستقبل الطبيعة البشرية نحو نسالة ليبيرالية، 2006).

بالإضافة إلى هذا فإن هابرماس يرى أنه من الضروري الحفاظ على الحد الفاصل بين الصدفة والاختيار الحر لأنه يشكل العمود الفقري لأخلاقنا، بمعنى أنه لابد من الحفاظ على المبادئ والأسس الأخلاقية التي تحفظ هويتنا في ظل التوسع الرهيب للاستنسال البشري، لأن أي مساس بهذا الفاصل سيؤدي إلى انهيار الهيكل البشري ووجوده وتغير في هويته، وفي هذا السياق نجده يقول:" **إننا نخشى فكرة أن يقوم الإنسان بفبركة أناس آخرين، لأن هذا الاحتمال يزيح الحدود بين الصدفة والاختيار الذي هو أساس معايير القيمة لدينا** " (هابرماس، مستقبل الطبيعة البشرية نحو نسالة ليبيرالية، 2006، صفحة 37).

وعلاوة على هذا يعتبر هابرماس أن الإعداد الوراثي والتدخل في تحويل الجينوم البشري وتعديله لمولود ما مستقبلا ، وإنتاجه وفق الشكل الذي يريدونه ، أي تصميمه، فهذا يعد تدخلا في تحديد الشكل الوراثي له، كما أنه يعد تعد على الأسس الجسدية في العلاقة بين الذات والحرية الأخلاقية، ثم يضيف أيضا في هذا السياق أن الأولاد المبرمجين في المستقبل سيسألون عن خريطتهم الجنسية والجسدية ، وتحميلهم المسؤولية خاصة عندما تكون النتائج غير مرضية ،كما أنه سيكون هناك أيضا حساسية أخلاقية في العلاقة بين الأشخاص المبرمجين والأشخاص الآخرين (العاديين)، باعتباره جسم غريب في علاقات الاعتراف المتبادلة (يعني حدوث تشوه في العملية التواصلية بين الأفراد المبرمجين والعاديين)، ويشمل ذلك حتى المؤسسات، والمجتمعات (المحمداوي و عبد اللاوي، هابرماس العقلانية التواصلية في ظل الرهان الايتيقي في نقد العلموي والديني والسياسي). نفهم من كل هذا أن هابرماس ينبه أن كل التطورات في الهندسة

الوراثية، وتغيير الجينات وأعمال الإنجاب، وكذا عمليات زرع الأعضاء لأغراض البحث العلمي يوسع من دائرة النظرة الثقافية الإنسانية الذي يليه في مقابله نتائج القضاء على الحساسية الأخلاقية، أي هناك علاقة عكسية فكلما توسعت أبحاث االبيولوجيا لهذه التقنيات الجنسية يصاحبه الحد من الحس الأخلاقي ويقلص الحدود الأخلاقية (هابرماس، مستقبل الطبيعة البشرية نحو نسالة ليبيرالية، 2006)، هذا رغم تخوف رجال الدين والسياسة من هذا الأمر إلا أنه لا يمكن الوقوف في وجه التطور العلمي (هابرماس، مستقبل الطبيعة البشرية نحو نسالة ليبيرالية، 2006)، لأن الحدود في عصر الطفرة التكنومعلوماتية غير مستقرة بين الطبيعة والثقافة، أي بين ما هو عضوي طبيعي وبين ما هو عضوي مصطنع، ولذلك فإن إدخال التقانة على الطبيعة الإنسانية يحيل في نفس الوقت بالتغيير لفهمه الذاتي ككائن أخلاقي أولا ، ونظرته لذاته ككائن حي حر متساوي من الناحية الأخلاقية، وكل هذا يدل على وصول الفعل الإنساني إلى أماكن كانت مجهولة لديه كأن يمس المسلمات والمقومات الطبيعية الإنسانية لديه في الصميم باعتبار أن الإنسان كان يعتبر سيد مصيره بوصفه فردا من أفراد الجماعة الأخلاقية (المحمداوي و عبد اللاوي، هابرماس العقلانية التواصلية في ظل الرهان الايتيقي في نقد العلموي والديني والسياسي).

لأن كما هو متعارف عليه هو أن عملية الوصل، أو الارتباط بين السلف والخلف (بين الأب والابن) تكون عن طريق التربية، وتستند التربية الأخلاقية والضوابط الأخلاقية بمفهومها الواسع إلى صلاحيات الآباء وتكون عليهم مسؤولية التربية، أما عند إضافة التربية البيولوجية لصلاحيتهم فهذا في اعتبار هابرماس ينذر بتحول خطير في القيم، والمبادئ، والطبيعة الإنسانية على حد سواء (المحمداوي و عبد اللاوي، هابرماس العقلانية التواصلية في ظل الرهان الايتيقي في نقد العلموي والديني والسياسي).

ويضيف هابرماس في نفس السياق أيضا أن موافقة الآباء وتقبلهم مهمة إجراء تعديلات جينية على الجنين، وحتى في مجال زرع الأعضاء، الموت الرحيم...فهذا يشكل خطرا كبيرا بعدم المحافظة على الهوية الجوهرية للفرد بذاته أي الطبيعة الأصلية لهذا الأخير، وبين وجود ذات مصطنعة يعني حصول اصطدام بين الطبيعة الأصلية والطبيعة المبرمجة، وهذا لا يمكن تقبله في المستقبل من قبل الأبناء أو الجيل الصاعد، باعتباره تعد على حرية الفرد الناشئ، وتحكم في تكوينه، وهذا ما رفضه هابرماس، لأن هذا يهدد استقلالية السوق في الحياة، ويشوش الفهم الأخلاقي الذاتي للشخص المبرمج في سوق الجينات، مما يعني أن هناك تخوفا كبيرا عند هابرماس من حدوث عدم التكافؤ العلائقي بين نتيجة إجراء تعديلات جينية ومبادئ العالم المعاش، وهذا الأمر يشوه علاقة الفرد بجسده أولا وعلاقته بالآخرين ثانيا (المحمداوي و عبد اللاوي، هابرماس العقلانية التواصلية في ظل الرهان الايتيقي في نقد العلموي والديني والسياسي)، وهذا يعني أن العملية التواصلية تكون مشوهة وناقصة، ولا توفي بالغرض المطلوب لأنه من الصعب حصول التفاهم المقصود (مصدق، 2005).

والمقبول عنده هو مالا يتعارض وحرية الأطفال الأخلاقية، أي أن القبول الأخلاقي لاستعمال التقنيات الوراثية هو فقط في حالات وجود تشوهات أو نقص، أو عدم سلامة الجنين، أو الخطر على حياة الأم ، ولكن ما يخشاه هو عدم القدرة على الفصل بين الرغبة والسعي في تكوين مولود سليم الصحة ،ومولود تام وكامل المواصفات خاصة في المجتمع الليبرالي، وهذا ما يعقد الأمر أكثر فأكثر، لأن المجتمع الليبرالي كما يرى هابرماس بإمكانه أن يخلط الأمر باسم الحرية، بين القضيتين السابقتين(السعي والرغبة)، بالإضافة إلى أنه رفض رفضا مطلقا الطاقم الوراثي بأكمله سواء كان ذلك بهدف الاستنساخ أو غيره (المحمداوي و عبد اللاوي،

هابرماس العقلانية التواصلية في ظل الرهان الايتيقي في نقد العلموي والديني والسياسي).

ونتيجة لكل هذا هو أن ما يهم فلسفة التواصل النقدية هو ما يعيق التواصل(التواصل المشوه) بين الأب المبرمج والابن المبرمج، أي خطورة اعتقاد الآباء أنهم خلقوا نسخا متطابقة أو متشابهة لهم، وهذه حالة مرضية في حد ذاتها، وهي التي تعبر عن الانفصام والنرجسية، وبهذا المفهوم فالفلسفة النقدية التواصلية أرادت رد الاعتبار للإنسان والحفاظ على كرامته وهويتة من الاضمحلال والتلاشي، وجعله كائنا مقدسا طبيعيا في حياته وفي ذاته، لذلك من الواجب الحفاظ على تلك المعايير والحدود الأخلاقية التي توصل الفرد بالآخر وحتى مجتمع بآخر، وتخليصه من الشبح الهدام الذي جاء لتدمير القيم الإنسانية واستبعادها تماما من حقل العالم المعيش (العلم المشيء)، وفي نفس الوقت كان هذا هو هدف الحداثة منذ البداية (رغم إنها مشروع غير مكتمل)، وهو الحفاظ على المعايير الأخلاقية التي تضمن للإنسان العيش في سلام مع أقرانه في المجتمع في كنف الحرية.

نجد هذا بالتوازي مع التطور العلمي والتكنولوجي وتنامي الحركات المنددة بالتوسع التقني على الكائن البشري، والتدخل في تعديل جيناته في إطار الهندسة الوراثية أن هناك من بلدان العالم من سنت قوانين صارمة للحد من ظاهرة التوسع هذه ، من منطلق الحفاظ على المبدأ الأخلاقي بالدرجة الأولى ففرنسا هي الأخرى كان من ضمن قوانينها الرئيسية التأكيد على حق الجسد البشري واحترامه، لأن الجسد البشري لا يمكن أن يكون موضوع تجارة، لأن القانون يضمن أولوية الجسد ويمنع أي تعد على كرامته، وهذه هي أبرز البنود التي نص عليها:

-لكل الحق في احترام جسده، لأن الجسد الإنساني مصان، ومن الممتنع أن يكون الجسد البشري، أو عناصره، أو نتاجه، موضوع حق إرثي (المادة 16-1).

-يحق للحاكم أن يأمر باتخاذ جميع التدابير لمنع أو وقف العدوان اللاشرعي على الجسد البشري أو الحيلولة دون كل سوء لا شرعي يمس عناصره أو إنتاجه (المادة 16-2).

-تمنع الإساءة إلى الجسد البشري إلا عند ضرورة معالجة الشخص (16-3) (روس، 2001).

إن هابرماس ليس ضد العلم ولا ضد التقنية، ولا ضد التدخل في التعديل الجيني للكائن البشري خاصة إذا كان الأمر يتعلق بالتعديل، والترميم، وإزالة التشوهات الخلقية أو ما يعرف بالاستنسال الايجابي عنده ، ولكن هو كان ضد البحث الاستهلاكي للأجنة، والتشخيص ما قبل الزرع الذي يخدم اللليبيرالية الجديدة المعولمة التي هي حلة جديدة للتطورية، والداروينية القديمة (هابرماس، مستقبل الطبيعة البشرية نحو نسالة ليبيرالية، 2006)، باعتبارها تشرع للحرية الشخصية، وتدعم السوق الليبرالية حيث سيصبح أعضاء الأفراد ستسوق كقطع غيار لا كأفراد مقدسين ذووا كرامات ، وعلى هذا الأساس أكد هابرماس أن كل الممارسات الطبية، وكل التدخلات على جسد الكائن البشري، وخلاياه تعتبر خط أحمر ومسؤولية كبيرة جدا ، لأن هذا الكائن أولا مقدس له أطر أخلاقية تحفظ هويته، وما هو عليه بالأصل ، هذه المسؤولية ليست فقط مسؤولية فرد أمام نفسه وإنما مسؤولية المجتمعات والدول في تحديد مصيرها الوجودي، والحفاظ على حريته من جهة وعلى كرامته من جهة أخرى.

والحديث عن المسؤولية، والحرية، والكرامة الإنسانية في قاموس الفلسفة النقدية التواصلية الأخلاقية لهابرماس تعتبر أهم المبادئ والمحاور الهامة

المقدسة التي ركز عليها هابرماس في الدفاع عن الإرث الأخلاقي، والمبادئ المقدسة في ظل التطور العلمي والتكنولوجي.

الكرامة الإنسانية خط أحمر عند هابرماس وهي لا تقتصر فقط على الأحياء وإنما لابد من احترام الجسد الإنساني حتى وهو ميت، وهذا ما يبرره قوله:" **إن التعبير عن احترام الأموات يمكن أن يتخذ أشكال دفن مختلفة** "، هذا يعني أنه لم يعد الأمر كما من ذي قبل أين كان الدفن جماعي، وبطريقة عشوائية، فالدفن هو حق من حقوق الميت الذي يضمن له كرامته (هابرماس، مستقبل الطبيعة البشرية نحو نسالة ليبيرالية، 2006، صفحة 48)، وهذه الكرامة الإنسانية لها معناها القيمي والدلالي لارتباطها بمفهوم الشرف بطريقة واضحة، ويعتبر هابرماس الجماعات الأخلاقية التي تمتلك الحرية، والمساواة لا تشكل مملكة الغايات (لا تحمل معنى ميتافيزيقي)، بل تمثل كرامة الإنسان التي تظل وسط أشكال الحياة العينية، ووسط قواعد سلوكهم بمعنى هي حق تطبيقي، وليست شيئا ميتافيزيقيا حسب هابرماس (هابرماس، مستقبل الطبيعة البشرية نحو نسالة ليبيرالية، 2006).

ولهذا نجد هابرماس قد ألح وبشدة على الدستور الألماني من أجل حماية الكرامة الإنسانية ، وأنه على كل السلطات احترام هذا الحق الرئيسي والجوهري لأن أي مساس بها يعتبر تعد على الأخلاق البشرية، وانتهاك لحرمته الإنسانية وقدسيته، لذلك لابد من الاعتراف بحقوق الأفراد لأنها أساس كل تجمع بشري، وكذا أساس العلم، والعدالة في العالم (هابرماس، مستقبل الطبيعة البشرية نحو نسالة ليبيرالية، 2006).

4-الانتقادات التي وجهت لهابرماس:

لم يسلم هابرماس بموقفه المضاد للبحث الاستهلاكي من الانتقادات التي وجهت له من طرف **إليزابيت فينتون Elizabithe Fonton** فهي اعتبرت أن

هابرماس بالغ في تخوفه، وقلقه الشديدين اتجاه التعديل الجيني الذي يشوه العلاقات الإنسانية خاصة تلك التي تكون بين الأب والابن، وذلك لانعدام المساواة في هذه العلاقة ، كما أن الوالدين يتمتعان بالصلاحية الكاملة للتحكم في الابن بصورة كاملة خلال فترة تطوره، ولكن نقاش هابرماس كان حول توسيع حدود تدخلات الوالدين، بالإضافة إلى تدخلات هذين الأخيرين(الوالدين) في العلاقة الطبيعية التي هي منتظمة، ومحدودة هذا أولا، والانتقاد الثاني يكمن في أن **فينتون** تنكر الحدود بين ما هو طبيعي، وبين ما هو مصطنع، وحسبها لا توجد معايير تتبع في هذا للتمييز بينهما، ولكن هابرماس قد قدم تساؤلات جدية ونقدية ، حول خطورة غياب هذه الحدود والفواصل بأنها تخل بأصل الوضوح الأخلاقي المطلوب، ولو أخذنا بمنطق الكلية في التطور المتدرج، فهذا سيحدث كارثة مما يعمل على تشيأ الإنسان وتحويله إلى وسيلة، وهذا ما يرفضه هابرماس ويتعارض جملة وتفصيلا مع فلسفته الأخلاقية.

بهذا المفهوم تكون الفلسفة النقدية التواصلية لهابرماس قد حققت عدة أهداف فالأول أنها تمكنت من ربط الفلسفة بالواقع ، وهي سمة فلسفة هابرماس من الأساس وهو الربط بين النظري والتطبيق، لأن الفلسفة لم تعد تأملية نظرية بل أصبحت عملية تطبيقية، (فلسفة الفعل)، كما أنها عملت على حل أزمة القيم(الأخلاق) التي يتخبط فيها المجتمع خاصة في المجال الطبي بوضعها ضوابط وحدود يمنع تجاوزها ، ما يعني أنها قدمت حلولا للمشاكل الإنسانية وعملت على فك الصراع بين التطبيقات الطبية والمبادئ الأخلاقية، بالإضافة إلى هذا قد برز من جديد دورها الفعال في المجتمعات المتطورة(علميا خصوصا) يعني (فلسفة علمية)، كما أنها استشرفت على مستقبل الواقع الإنساني وبينت خطورة التطور العلمي غير الخاضع للتأطير الأخلاقي الذي يؤول كما يقول هابرماس إلى المنحدر المنزلق يعني إلى الخطر المحقق، وهذا كله يعني أنها درست، ونقدت، وأطرت الوضع

الإنساني ، ومن هذا كانت الفلسفة النقدية التواصلية فلسفة نقدية تحليلية، وبناءة .

والنتيجة من كل هذا هو أن الفلسفة النقدية التواصلية لهابرماس بنظريتها في المجتمع قد فتحت الآفاق واسعة للسؤال الفلسفي، ودوره في البناء الاجتماعي والسياسي، وهو في الأساس لب، ومحور نظريته التواصلية في المجتمع.

5. خاتمة

خلاصة القول وانطلاقا من الواقع المعاش يبدو أن الفجوة لا تزال في اتساع دائم ومستمر بين التطور العلمي، والتكنولوجي الهائل، والمتسارع من جهة ،وبين الفواصل، و المبادئ الأخلاقية من جهة أخرى مما يسمح بظهور النقاشات، والنزاعات الساخنة بين النزعات التطورية العلمية، وبين النزعات الأخلاقية، لأن العلم في مسار دائم وفق منحى تصاعدي، فهل ستتخذ الأخلاق نفس الاتجاه الموازي للأول، وتصمد أم أنها تتلاشى في زمن ما، وتصبح من خبر كان. وسأختم مقالي هذا بطرحي لبعض الأسئلة التي يجبرنا العلم عن طرحها ولا نملك أي سبيل للإجابة عليها، وبالتالي تبقى مفتوحة لكي يجيب عنها الزمن لا حقا في الزمن المستقبل وهي: - إذا افترضنا تتبع هذه التقنية في خلق خلق جديد هل سيكون العالم بنفس المواصفات التي هو عليه؟وهل سيكون نفس الإنسان بنفس المواصفات الأخلاقية التي هو عليه الآن أيضا ؟يعني هل ستبقى الفلسفة الحارس الشخصي دوما للحدود الأخلاقية لمواجهة التطور العلمي والتكنولوجي؟

ثم هل القيم الإنسانية الأخلاقية خاصة سوف تزول بظهور هذا النوع الجديد نهائيا أم أن هذا مجرد تطور لنظريات علمية تصل إلى حد ما ثم تتخذ منحى آخر؟

6. قائمة المراجع:

1.البقصمي ,ن ,1993) .جويلية .(الهندسة الوراثية .*سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب* .

2.برترند راسل. (1983). *حكمة الغرب* (المجلد 72). (فؤاد زكريا، المترجمون) الكويت: سلسلة عالم المعرفة المجلس العلمي الوطني للثقافة والفنون والآداب.

3.جاكلين روس. (2001). *الفكر الأخلاقي المعاصر* (الإصدار 1). (عادل العوا، المترجمون) بيروت: عويدات للنشر والطباعة.

4.حسن مصدق. (2005). *يورغن هابرماس ومدرسة فرانكفورت، النظرية النقدية التواصلية* (الإصدار 1). المغرب: المركز الثقافي العربي.

5.علي عبود المحمداوي، و الناصر عبد اللاوي. *هابرماس العقلانية التواصلية في ظل الرهان الايتيقي في نقد العلموي والديني والسياسي* (الإصدار 1). الجزائر: ابن النديم للنشر والتوزيع.

6.محمد عابد الجابري. (1987). *قضايا في الفكر المعاصر* (الإصدار 1). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

7.يورغن هابرماس. (1995). *الفلسفة الألمانية والتصوف اليهودي* (الإصدار 1). (نير جاهل، المترجمون) بيروت: المركز الثقافي العربي.

8.يورغن هابرماس. (2001). *المعرفة والمصلحة* (الإصدار 1). (حسن صقر، المترجمون) ألمانيا، ألمانيا: كولونيا.

9.يورغن هابرماس. (2006). *مستقبل الطبيعة البشرية نحو نسالة ليبيرالية* (الإصدار 1). (جورج كتورة، المترجمون) بيروت، بيروت: المكتبة الشرقية.